عبد الكريم غلاب: المثقف العضوي (مسار الحركة الوطنية المغربية)

سعيد بنسعيد العلوي(*)

مفكر وأكاديمي مغربي.

في منتصف آب/أغسطس الماضي غيَّب الموت علماً بارزاً من أعلام الفكر العربي المعاصر في المغرب ومناضلاً سياسياً وطنياً وعروبياً معاً، هو المرحوم عبد الكريم غلاب (١٩١٩ ـ ٢٠١٧). وليس من لغو الحديث أن ننعت غلاب بالمثقف «العضوي»، ولا من قبل الكلام المرسل على عواهنه أن نجعل لهذا الحديث عنواناً فرعياً (مسار الحركة الوطنية المغربية)؛ كما أنه ليس من باب المغالاة في القول أن نربط حياة ومسار الرجل بمسار الحركة الوطنية المغربية جملة. ذلك أن حياة عبد الكريم غلاب قد اتصلت بتلك الحركة منذ شبابه الأول حتى مرحلة «الشيخوخة الظالمة» (والنعت للرجل، فذاك عنوان أحد كتبه المتأخرة)، والحق أن مسار الرجل ارتبط بمسار الحركة الوطنية المغربية؛ ففكر هذه الحركة ومسارها يلقي أضواء كاشفة على فهم حياة غلاب وفكره، وذلك هو ما تسعى هذه الورقة إلى الإبانة عنه.

اتسمت الحياة الفكرية لعبد الكريم غلاب بغزارة وتنوع كبيرين في الإنتاج، فقد فاق عدد مؤلفاته السبعين عنواناً واختلفت كتاباته بين الدراسات السياسية، والنظرات الإسلامية، والرواية، والقصة القصيرة، والسيرة الذاتية، والتراجم، والتأريخ للحركة الوطنية المغربية. وأخص ما يسترعي الانتباه هو أن الرجل، طوال عقود ستة كادت تكون متصلة، ظل ـ مع هذا الإنتاج الغزير (خلا سنوات معدودات استغرقه فيها العمل الإداري) ـ متصلاً بالعمل الصحافي اليومي مرتبطاً بالمهنة ومصاعبها؛ فقد خبر أنواعاً شتى من الضغوط السياسية ووقف في المحاكم (بعد استرجاع المغرب استقلاله) متهماً يدافع عن المهنة وشرفها. وأود، في الحديث عن إسهام غلاب في الكتابة العربية في المغرب في الصنوف التي أشرت إليها، أن أوجه الانتباه إلى أمرين اثنين بصدد كل من الكتابة القصصية والروائية من **جهة أولى**، وفي عمل التأريخ للحركة الوطنية المغربية من **جهة ثانية**.

(*) البريد الإلكتروني: essaidbensaidalaoui@gmail.com.

عن الكتابة القصصية والروائية أقول إن عبد الكريم غلاب بمجموع ما كتبه (١٣ رواية، ٧ مجموعات قصصية، ١٠ مجاميع قصصية للشباب) يتصدر ـ من حيث الكمّ ـ لائحة الروائيين وكتاب القصة القصيرة في المغرب، وهذا من **جانب أول**. ثم إن غلاب يحتل مركز الصدارة في تاريخ الرواية العربية في المغرب وذلك هو الشأن بالنسبة إلى رواية **دفنا الماضي** ـ وأحسب أن هذه الرواية، من حيث السبق الزمني في الكتابة الروائية العربية في المغرب، تعادل الدلالة الرمزية والقيمة التاريخية لرواية **زينب** لمحمد حسين هيكل في تاريخ الرواية العربية في مصر ـ ولا شأن لي في تقرير هذا المعطى الميداني بإصدار حكم قيمة على الكتابة الروائية عند صاحب **المعلم علي** و**سبعة أبواب**، فذاك شأن نقاد الأدب والمنشغلين بشؤونه.

أما عن عمل التأريخ للحركة الوطنية المغربية (وهو **الجانب الثاني** الذي يسترعي الانتباه في الحديث عن غلاب الكاتب المؤلف) فإني أقول: إن مؤلف **تاريخ الحركة الوطنية** (الصادر عام ١٩٧٦) يعتبر، في تاريخ التأليف في موضوع الحركة الوطنية المغربية، في طليعة المؤلفات في الموضوع. نعم، سبقه في ذلك كتاب علّال الفاسي **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**؛ غير أن هذا الكتاب، مع أهميته القصوى في التعريف بالحركة الوطنية المغربية وما أجده في الفصل الأخير منه بخاصة من أهمية قصوى في إثارة الإشكال المتعلق بالوعي النظري في عمل تلك الحركة، وبالتالي التعبير عن الوعي الحاد بافتقاد النظرية وفي الحاجة إلى النظرية السياسية التي تنير السبيل، لم يكتب بقصد التأريخ وإنما كان عملاً نضالياً ألفه صاحبه في عنفوان معركة التحرير الوطني ـ إبان الاستعمار سنوات ثمانٍ قبل استرجاع المغرب استقلاله ـ وكان التأليف بإيعاز من جامعة الدول العربية الفتية ومن رئيس لجنتها الثقافية بخاصة (أحمد أمين)، فضلاً عن كون علّال الفاسي قد توسع في الكتاب ليكون عرضاً شاملاً لأحوال الجزائر وتونس وليبيا زمن كتابة الكتاب. كما أن زعيماً مغربياً آخر، هو محمد بن الحسن الوزاني، كان قد شرع في إظهار مذكراته (وهي عمل قيم وشهادات حية على فترة خصبة من تاريخ المغرب المعاصر) ـ بيد أن عمل كل من الوزاني، وعمل صاحب **الحركات الاستقلالية** كان قولاً في صميم معركة استرجاع الاستقلال في الفترة التي سبقت حدوث نقلة نوعية حاسمة في عمل الحركة الوطنية، فكان عنها إعلان الاستقلال في آذار/ مارس ١٩٥٦.

أولاً: الحركة الوطنية المغربية: تذكير إجمالي وإضاءة نظرية

تم استعمار المغرب، مثلما هو حال الدول العربية كلها أو التي كان لها منها كيان دولي مستقل، نتيجة جملة من الاتفاقيات الثنائية والثلاثية بين القوى الإمبريالية التي جعلت من استعمار الوطن العربي وكذا بلدان أفريقيا ومناطق عديدة من القارة الآسيوية هدفاً واضحاً لم تكن لتتردد في الإعلان عنه منذ عشرينيات القرن التاسع عشر. وفي تذكير بالصيغ الاستعمارية نقول إن احتلال البلدان العربية اتخذ أحد أساليب ثلاثة: الاستعمار المباشر والاستحواذ على البلاد واعتبارها قد أصبحت بعضاً من البلد المستعمِر (وذلك هو حال الجزائر). والصيغة **الثانية** هي: الانتداب (وتلك

صورة الوجود البريطاني في مناطق من الجزيرة العربية واليمن والشام). وأما الصيغة **الثالثة** فهي الحماية: وتلك كانت هي الصورة «القانونية» للوجود الاستعماري في كل من مصر، وتونس، والمغرب.

يوم ٣٠ آذار/مارس ١٩١٢ تم توقيع «عقد الحماية» بين الدولتين المغربية والفرنسية. وحقيقة الأمر أن استعمار المغرب كان قد غدا واقعاً قائماً سنوات عديدة قبل ذلك بموجب اتفاقيات ثنائية (فرنسية ـ بريطانية، فرنسية ـ إسبانية، فرنسية بلجيكية، ألمانية ـ فرنسية، فرنسية ـ إيطالية فضلاً عن مؤتمرات دولية عديدة أشهرها مؤتمر مدريد (١٨٨٠)، واتفاقية سايكس ـ بيكو (١٩٠٦)، ثم المؤتمر الفضيحة الذي ضم ١٣ دولة استعمارية وتقرر فيه مصير المغرب بصفة نهائية في السنة نفسها في مدينة الجزيرة الخضراء في إسبانيا واشتهر باسم المدينة (مؤتمر الجزيرة الخضراء). ونتيجة لكل هذه الاتفاقيات كان استعمار إسبانيا لشمال المغرب ولمناطق شاسعة من جنوبه، واستعمار فرنسا لباقي المناطق الأخرى ـ ثم كان لمدينة طنجة وضع خاص، مخالف لكل من الحمايتين الإسبانية والفرنسية، وهو وضع المنطقة الدولية (أي الخضوع لحماية مجموعة من الدول الأوروبية) في تاريخ لاحق.

بموجب «عقد الحماية» تتعهد السلطة الاستعمارية الفرنسية بإدخال مجموعة من الإصلاحات المالية والإدارية والتنظيمية في المغرب مع المحافظة على النظام السياسي المغربي قائماً ومراعاة واقع الإسلام والتنظيم الاجتماعي القائم في البلاد. ثم إن فرنسا تغدو، بموجب «العقد» الذي يجعل منها بلداً «حامياً»، المسؤول الوحيد عن المغرب خارج حدوده المعروفة ـ وبالتالي فإن الحماية تنزع عن المغرب صفة البلد ذا السيادة، وبالتالي تدخله ـ في نهاية الأمر ـ في دائرة البلاد المستعمَرة.

غداة توقيع «عقد الحماية» في فاس، عاصمة المغرب آنذاك، ستشهد البلاد أحداثاً دموية رهيبة في العاصمة ذاتها، غير أن «الدهشة»، من **جهة أولى**، وقوة القمع الدموي والوجود العسكري الفرنسي، من **جهة ثانية** ـ فضلاً عما كان قد استنزف البلد من حركات «خروج» (في معنى التمرد والثورة على السلطة الشرعية) مغامرين في أعمال من السلب من جهة وفي علاقات استكانوا بموجبها للسلطة الاستعمارية فأصبحوا أتباعاً لها بشكل مباشر، كل هذا جعل السنوات الأولى التي أعقبت سنة ١٩١٢ في حال سكون نسبي ـ ظاهري في حقيقته، وإن كانت المقاومة المسلحة قد استمرت في مناطق من الجبال المغربية (الأطلس الكبير والأطلس الصغير)، فلم تهدأ إلا في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي. بيد أن شرارة اندلاع المقاومة في مجموع البلاد ـ وفي المدن المغربية الكبرى بخاصة ـ ستنطلق بمناسبة إعلان «ظهير» (القانون الملكي، في اللغة الإدارية المغربية) في تاريخ ١٦/٥/١٩٣٠ وسيحمل هذا القانون اسم **الظهير البربري**. ومفاد هذا الظهير إحداث مجال تشريعي، وبالتالي جغرافي، يغدو «البربر» (العنصر المغربي الأمازيغي) بمقتضاه خاضعين لأحكام «أزرف» (والكلمة تعني، في اللسان الأمازيغي، العرف) فلا يكون الأمازيغ، بالتالي، خاضعين في أحكامهم ومعاملاتهم الشخصية ـ أي في أحكام الزواج والطلاق والإرث والأسرة ـ للتشريع الإسلامي؛ وإنما يكون عليهم أن يحتكموا إلى «أزرف» أو «العرف» الذي كان موجوداً في المغرب قبل اعتناق المغاربة للإسلام قبل اثني عشر قرناً. وفي كلمة واحدة فإنه يتم في المغرب كله، بكيفية

عملية، الفصل بين العنصرين أو المكونين الذاتيين للإنسان المغربي: العنصر العربي والعنصر الأمازيغي ـ والحال أن العنصرين منسجمان ومذوبان في بوتقة واحدة هي الهوية المغربية وقد كان الإسلام تعبيراً روحياً، وبالتالي تعبيراً قانونياً وثقافياً عن الهوية المغربية.

كان إعلان **الظهير البربري** الحدث الفعلي والرمزي الذي فجَّر الوعي الوطني في المغرب، وكان التعبير الديني هو الصيغة التي يعبَّر بها عن ذلك الوعي. غدا يوم ١٦/٥/١٩٣٠ (تاريخ صدور الظهير المذكور) ميلاداً فعلياً للحركة الوطنية المغربية لتقطع تلك الحركة بعد ذلك رحلة طويلة عسيرة معاً. وحيث لا يتسع لنا المجال للحديث عن تلك الأطوار والمحطات، وكذا القول في النحو الذي ارتبط به عمل التحرر الوطني في المغرب بحركة التحديث، وهو ما انشغلنا به في دراسات متعددة[١]، فإننا نوجز القول في تلك المحطات الحاسمة في الفقرات القصيرة المكثفة التالية:

١ ـ ضاقت سلطات الحماية ذرعاً بالأصوات التي ارتفعت، هنا وهناك، بإدانة فرنسا واتهامها بأنها بصدد سلوك الاستعمار المباشر (ضداً على «عقد الحماية»)، وأشاعت فكرة تقضي بأن الأمر لا يعدو أصواتاً شاذة لا يعتد بها لجماعات قليلة من الشباب، فيهم من درس في الجامعة الفرنسية، قد تجد تلك الأصوات صدى في بعض المجامع خارج المغرب، غير أنه لا أثر فعلياً لها في الواقع المغربي. ثم إن أولئك الشباب، لا يملكون تصوراً واضحاً للأمور يكون في تناغم مع الإصلاحات التي تلتزم الحكومة الفرنسية بإحداثها في المغرب، فضلاً عمّا في تلك «الأقاويل» من جهل وغبن لوجود السلطة الحمائية في المغرب. كان ذلك هو الخطاب الذي سعت الحماية الفرنسية في المغرب إلى إشاعته في موازاة اللجوء إلى العنف بطبيعة الحال.

كانت تلك فرصة سانحة للطليعة المغربية المقاومة، التي ظلت منذ غداة ١٦ أيار/مايو تعمل في السرية المطلقة تنتظمها «الزاوية» (أو التكية كما يقال في بلاد المشرق العربي)، فكان أن ظهر تكتل حمل في البداية اسم «الكتلة العاملة الوطنية» عكف على إعداد مذكرة شاملة تحت عنوان «مطالب الشعب المغربي»؛ تطالب بإحداث الإصلاحات التي يتوق الشعب المغربي إلى تحقيقها في مجالات الحياة الإدارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ـ أي تلك التي كان «عقد الحماية» ذاته ملزماً بإحداثها. ثم إن المذكرة أو كناش المطالب مهدت للمطالب بفصلين. تذكّر في **الأول** منهما بدلالة الحماية من الناحية القانونية وكيف أنها لا تعني التفريط في استقلال المغرب في شيء أو اعتباره مقاطعة فرنسية مستعمرة، ثم إنها تذكر بتصريحات كبار المسؤولين في الحكومة الفرنسية بمن فيهم «المقيم العام» (الحاكم الفرنسي المنتدب من قبل الحكومة الفرنسية والمسؤول عن مراعاة بنود الحماية وتطبيقها). أما الفصل **الثاني** فقد كان جرداً لتجاوزات سلطات الحماية وإخلالها بمقتضيات العقد، مع تقديم إحصاءات وأدلة ملموسة على أن الحماية ـ على امتداد اثنتين وعشرين سنة ـ لم تف بشيء من الإصلاحات الموعودة وأن الجهة الوحيدة المستفيدة من خيرات المغرب هي العناصر الفرنسية التي تم استقدامها من فرنسا قصد ترسيخ حال الاستيطان السكاني والعسكري ـ فضلاً عن المحاولة الفاشلة في إحداث الشرخ الكبير في المغرب الذي يغدو المغرب

(١) أكتفي منها بالإشارة إلى كتاب قديم صادر عن مركز دراسات الوحدة العربية تحت عنوان **الوطنية والتحديثية في المغرب.**

الواحد معها مغربين: مغرب عربي ـ مسلم، وآخر أمازيغي لا صلة له بالعروبة لغة ولا بالإسلام ديناً وثقافة.

تم تبليغ المذكرة إلى «الإقامة العامة» (مقر سلطة الحماية)، بطبيعة الحال، وكذا إلى ممثلي الدول الأجنبية في المغرب، كما أنه تم الإعلان عن تبليغ المذكرة إلى ملك المغرب. غير أن الأمر كان كذلك من حيث الظاهر فحسب؛ أما في حقيقة الأمر فإن تنسيقاً دقيقاً، سرياً بطبيعة الأمر، كان قائماً بين «الكتلة» وبين الملك الشاب محمد بن يوسف (محمد الخامس). تنسيق وتوافق عرف بدايته الفعلية قبل تقديم المذكرة المشار إليها، مما لا نخوض فيه حرصاً على الإيجاز في القول.

كان من الطبيعي أن تقابل «مطالب الشعب المغربي» بالرفض من قبل الحماية. لا، بل وأن تعقب الرفض حركة قمع شامل للمطالبين بالإصلاحات وكذا من يعلن تأييد المطالبة. غير أن منطق التاريخ قضى بغير ذلك. فما حدث هو أن «الكتلة العاملة الوطنية»، تلك التي صاغت وحملت «مطالب الشعب المغربي» قد انتظمت في كيان جديد (كتلة العمل الوطني). كان تنظيماً، من جهة أولى، مجاوزة لنظام «الزاوية» الذي ينتمي إلى أزمنة سحيقة ومغاير في طبيعته للعمل السري الخالي من التنظيم ومن روح الحداثة؛ وكان، من جهة ثانية، أكثر نجاعة في التنظيم من صيغة ««الكتلة العاملة». غير أن هذا التنظيم ظل، بطبيعة الحال، من حيث بناؤه السياسي، دون مستوى وصيغة التنظيم الحزبي.

بيد أن ميلاد «كتلة العمل الوطني» كان، من كل الوجوه، إيذاناً بميلاد مرحلة جديدة حاسمة معاً في عمل الحركة الوطنية المغربية الناشئة: لقد حقق ذلك الميلاد، في تاريخ المغرب المعاصر، النقلة الكيفية الأولى التي تؤشر إلى ميلاد المغرب المعاصر وإعلان القطع مع أزمنة العصور الوسطى.

٢ ـ المحطة الثانية الحاسمة في مسار الحركة الوطنية المغربية شهدتها جملة الأحداث الكبرى التي عاشها المغرب خلال سنة ١٩٣٧. ففي هذا العام عرف المغرب أحداثاً خطيرة في عدد من المدن المغربية، مما لا نغرق القارئ بالخوض فيه، غير أننا نقول إجمالاً إنها أحداث كانت كلها تكشف عن تمادي الاستعمار الفرنسي في العبث بما كان مقرراً في «عقد الحماية» جملة؛ مثلما أنها كانت أفعالاً أظهرت للعيان حقيقتين اثنتين اجتهد الاستعمار في إخفائهما منذ اليوم الأول: **أولاهما** أن الحماية الفرنسية في المغرب كانت ماضية في اتجاه تكريس الهيمنة الشاملة للوجود الفرنسي من حيث الامتيازات الهائلة التي كانت تغدقها على العناصر الفرنسية وقد استولت على مناطق فلاحية هائلة وعلى مناطق استغلال منجمي، في استهتار تام مع «عقد الحماية». و**ثانية** الحقيقتين هي انحسار الغطاء عن وهْم ظل يعلق ببعض النفوس؛ وهْم تبدل الأحوال في المغرب إيجابياً بوصول جبهة اليسار الفرنسي إلى الحكم في السنة السابقة على موضوع حديثنا، في حين تبين للجميع أن الواقع لم يظل على ما كان عليه بل إنه أصبح أكثر سوءاً؛ فالروح الاستعمارية واحدة وإن كان الخطاب مختلفاً ـ شكلاً ـ بين اليمين واليسار.

بلغ عمل «كتلة العمل الوطني» مستوى من التنظيم والنضج والاتساع بحيث إنه غدا ممكناً الإعلان عن ميلاد حزب سياسي صريح ينتظم فيه عمل الحركة الوطنية المغربية وفقاً لأحكام التشريع الفرنسي ذاتها، فكان الإعلان عن تأسيس «الحزب الوطني». غير أن التأسيس أو عملية الولادة ذاتها أسفرت عن واقع لم يخلُ من إيلام بالنسبة إلى الحركة الوطنية في جوانب منه. ذلك أن

خلافاً نشب حول النتيجة التي أفضى إليها التصويت في تأسيس القيادة العليا للحزب أدى إلى بروز تنظيمين حزبيين في الآن ذاته: الحزب الوطني، والحزب القومي (سيصبح، فيما بعد، حاملاً اسم: حزب الشورى والاستقلال) لتكون بذلك هزة أولى قوية تُمنى بها الحركة الوطنية المغربية، غير أنها هزة، مع قوتها وخطرها على العمل السياسي المقاوم، لم يكن لها، في العمق، من التأثير ما يبلغ من القبح درجة التأثير السلبي على العمل الوطني في المغرب في مرحلة حرجة من حياة ذلك العمل.

على أن الاستعمار الفرنسي، في عمل القمع الشامل الذي شهده المغرب المحتل في سنة ١٩٣٧، وفي رفض مطلق لفتح الطريق أمام العمل السياسي (والعمل الصحافي الحر، وروافده، والحق في تأسيس أحزاب)، امتدت يده لترمي بقيادتي الحزب في السجون وفي المنافي البعيدة. كذلك سيُنقل علال الفاسي، زعيم الحزب الوطني، إلى المنفى في أقاصي الغابون ليمكث فيه، قيد الإقامة الإجبارية، تسع سنوات في عزلة قاتلة من علاماتها أن الفاسي لم يبلغه نبأ نهاية الحرب العالمية الثانية وانهيار دول المحور. كما أن محمد بن الحسن الوزاني، أحد الزعماء البارزين في العمل الوطني ورئيس الحزب القومي، سيلقى به في منفى سحيق في مشارف الصحراء، كما أن باقي القادة عرفوا مصائر ليست بأقل سوءاً، فلم ينجُ من القمع ومصادرة الحرية إلا من كان منهم في ذلك الحين خارج المغرب.

٣ ـ شهدت المحطة الثالثة، في عمل الحركة الوطنية المغربية، بدايتها مع النقلة النوعية الثانية التي عرفها عمل تلك الحركة سنة ١٩٤٤، وتحديداً في اليوم الذي غدا في التاريخ المغربي المعاصر تاريخاً يطفح بالدلالات: ١١ كانون الثاني/يناير، تاريخ تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال.

ننعت الأمر بالنقلة النوعية الثانية في العمل الوطني بالمغرب لسبب واضح: بعدما ظل الأمر، طوال السنوات العشر السابقة على تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال متعلقاً بما اعتبرته الحماية مطلباً تعجيزياً وكانت الحركة الوطنية المغربية ترى فيه عملاً تكتيكياً ناجعاً يقوي موقفها أمام الرأي العام الدولي وأمام الدول الغربية خاصةً، تُبين لها أن مجرى الأحداث قد بلغ الدرجة الكافية من النضج للمجاهرة بمطلب الاستقلال التام واسترجاع السيادة الوطنية المختطفة. ومن الضروري التنبيه إلى أمرين هامين أكاد أقول إنهما أتيا نتيجة تنسيق تام ودقيق بين قادة الحركة الوطنية (أقصد من كان منهم خارج المنافي والسجون) وبين ملك البلاد محمد الخامس. أما الأمر **الأول** فهو الإعلان، قبل أشهر قليلة من تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال، عن تأسيس حزب سياسي ضم، بالإضافة إلى أعضاء الحزب الوطني، نخباً جديدة؛ هذا الحزب هو: حزب الاستقلال. وأما الأمر **الثاني** فهو أن التنسيق الدقيق بين الحركة الوطنية المغربية وبين ملك البلاد قد غدا حقيقة تقض مضجع السلطات الحمائية في المغرب وتحملها على المزيد من العنت والقمع، والتضييق على ملك البلاد واتهامه بموالاة «الشيوعيين» (وذلك هو النعت الذي أصبحت الحماية الفرنسية تطلقه على الوطنيين عامة، وعلى المنتمين إلى حزب الاستقلال خاصة). والتضييق الشديد على الملك سيصبح جلياً للعيان وسيمضي العمل بذلك بكيفية تصاعدية في السنوات القليلة اللاحقة.

٤ ـ المحطة الرابعة، وتشكل بدورها نقلة كيفية في عمل الحركة الوطنية المغربية، يعمل عليها حدث هائل اهتز له وجود ووجدان الشعب المغربي: الانتقال من التضييق على الملك وتهديده إلى إقدام سلط الحماية الفرنسية في المغرب، في ١٩٥٣/٨/٢٠ على نقل الملك محمد الخامس

إلى كورسيكا في فرنسا أولاً ثم إلى جزيرة مدغشقر بعد ذلك. قام الاستعمار الفرنسي بما أقدم عليه في عملية هي أقرب إلى الاختطاف المفاجئ منها إلى النفي، وأتى ذلك بعد أن ضاق صدر ذلك الاستعمار بالمواقف الصلبة لمحمد الخامس تجاه الإدارة الاستعمارية وبما لم يعد من الممكن إخفاؤه أو تجاهله من الانسجام والتنسيق التامَّين مع قادة الحركة الوطنية. وقد تلقى الملك من قبل المقيم العام الفرنسي تهديدات عديدة مبطنة، وبلغت الأزمة بين القصر الملكي وبين الاستعمار الفرنسي مبلغاً كادت الإزاحة عن العرش بالقوة تكون واقعاً متحققاً في سنة ١٩٥١. ومرة أخرى نقول إننا نحجم عن الاسترسال في حديث تفصيلي، ضروري ومفيد لإدراك طبيعة ومعطيات العمل الوطني في المغرب في السنوات التسع التي أعقبت المجاهرة بمطلب الاستقلال والتي تكشف عن الكيفية التي استطاع بها ملك البلاد أن يكتسب صورة بطل التحرير وأن يغدو ـ في إجماع وطني ـ قائداً لثورة التحم فيها العرش بالشعب فكانت فعلاً، ثورة للملك والشعب في وجه الاستعمار؛ ثورة يقودها ملك! ثورة بلغت عند الملك درجة التضحية بالعرش ذاته.

لعلّنا في غنى عن القول إن ما بعد ١٩٥٣/٨/٢٠ سيعرف انطلاق شرارة الثورة العارمة في المغرب، كما أن القمع سيتجلى في أكثر صوره بشاعة من قبل الاستعمار الفرنسي. ومن نافلة القول كذلك أن نذكر أن حظر العمل السياسي أصبح واقعاً مقرراً وأن كل القيادات السياسية قد ألقي بها في السجن أو طوح بها إلى المنافي البعيدة. غير أن ما تلزم الإشارة إليه هي أن مطلب الاستقلال أصبح مقترناً بمطلب إرجاع محمد الخامس، من المنفى في مدغشقر، إلى عرشه في المغرب. لا بل إن هذا المطلب الثاني أصبح المطلب الأساس الذي يعتبر استرجاع الاستقلال السياسي من مقتضياته وشروطه. لم يعد محمد الخامس ملكاً للبلاد فحسب، بل إنه غدا زعيماً وطنياً هائلاً وقائداً أسمى للحركة الوطنية المغربية.

كانت المرحلة الرابعة هذه إيذاناً بانفجار المقاومة المسلحة وبلوغ المواجهة بين الاستعمار الفرنسي وبين الحركة الوطنية المغربية مرحلة المعركة الحاسمة؛ حيث سيصبح الثمن مدفوعاً بدماء الشهداء. وقد كان الأمر كذلك. بيد أن إرادة الحرية كانت أقوى من صوت البنادق وسوط الجلاد في السجون، فكان رجوع محمد الخامس من المنفى بعد عامين وأشهر ثلاثة؛ وكان إعلان استقلال المغرب، أسابيع قليلة بعد عودة الملك من المنفى وإقفال ملف حماية استمرت أربعاً وأربعين سنة: حماية في شقيها الفرنسي والدولي، وإنهاء لصيغة «المنطقة الدولية في طنجة».

٥ ـ المحطة الخامسة، والأخيرة، هي التي لا تزال الحركة الوطنية المغربية تتقلب في أطوارها المختلفة منذ السنة الثالثة التي أعقبت الإعلان الرسمي عن استعادة المغرب لاستقلاله (خلا مناطق لا تزال موضع صراع بين إسبانيا والمغرب) وحتى يومنا هذا. القصد بذلك: الشرخ الكبير الذي حدث في الحزب الوطني الأكبر (حزب الاستقلال) وتأسيس حزب جديد انفصل عن الحزب الكبير ـ «الاتحاد الوطني للقوات الشعبية» ـ وفي تعبيرات حزبية مختلفة أحزاب أخرى. وستتوالى الأزمات والانقسامات بعد هذا الانفصال ـ ومن ذلك الإعلان عن تأسيس «الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية» في منتصف سبعينيات القرن المنصرم.

الحق أن هذه «الانفصالات» و«الانقسامات» هي، في العمق من «طبائع الأشياء» كما في العبارة الخلدونية الشهيرة ومن مقتضيات العمل من أجل التحرير؛ تحرير البلاد من الاستعمار واسترجاع

استقلالها. لعلنا، التماساً للفهم، بحاجة إلى استدعاء ما اشتهر به الزعيم الصيني ماو تسي تونغ من تمييز، في عمل الكفاح الوطني والنضال السياسي، بين التناقض الأساسي من جانب أول والتناقضات الثانوية من جانب ثان. والحركة الوطنية المغربية عبر مسارها وفي محطات تشكلها كان لا بد لها من أن تقبل وجود «تناقضات ثانوية» بين مكوناتها وأن تخفي تلك التناقضات أو تتفق، ضمناً أو صراحة، على تأجيلها إلى حين إلغاء «التناقض والأساسي» وبالتالي القضاء على الاستعمار فتصرف جهودها وتوحد قواها من أجل ذلك. ثم إن الحركة الوطنية المغربية، منذ نشأتها الأولى، وفي الأساس النظري الذي يرفدها، كانت حركة تحديثية، بمعنى أنها كانت حركة رفض لكل الأشكال والنظم السياسية والثقافية التي جعلت المغرب في حال «القابلية للاستعمار». فلا يكون التحرير ممكناً وشاملاً إلا متى كان تحريراً للبلد من القيود السياسية والإدارية والعسكرية وتحريراً للعقول. وفي عبارة أخرى نقول إن الحركة الوطنية المغربية كان لا بد لها من استبطان نظرية في الدولة ونظرية في المجتمع، وبالتالي كانت بحاجة إلى التوافر على منظومة سياسية ـ ثقافية شاملة.

إذا كان في الإمكان إخفاء «التناقضات الثانوية» أو تأجيلها في عنفوان معركة الكفاح من أجل استرجاع البلاد استقلالها وسيادتها، فإن عمل الإرجاء أو الإخفاء أو التغييب أصبح أمراً متعذراً بعد الإعلان عن الاستقلال وطرح القضايا التي تتعلق ببناء دولة الاستقلال، وبالتالي الإعلان عن الخيارات الأيديولوجية الكبرى التي تتصل بقضايا الدولة، والمجتمع، والثقافة. وهذه الحال ليس مما تنفرد به الحركة الوطنية المغربية، وإن كنا نقر بوجود دواعٍ تتعلق بالبنى الثقافية والسياسية في المغرب تجعل تلك الحركة تتزيّا، وجوباً، بكل تلك المكونات والمؤثرات.

ثانياً: عبد الكريم غلاب ـ سفر التكوين

يستعيد غلاب بعضاً من طفولته وشبابه الأول في كتابه **الشيخوخة الظالمة ـ سيرة ذاتية لشاب يرفض الشيخوخة** فيكتب: «الشيخوخة كانت تترصدني في صباي، ولولا أني اندمجت في العمل الوطني مبكراً وبدأت أتحرر من بعض القيود وأتمرد على «العيب» لأضعه في مكانه الحقيقي لما خرجت من دوامة الشيخوخة التي كانت تحكم الطوق على شبابي وقراءاتي وتفكيري جميعاً»[٢]. واقع المغرب، في عشرينيات القرن الماضي وبداية الثلاثينيات منه كان يُشعر الفتى غلاب بأنه كان شيخاً عجوزاً قبل الأوان: «في تجربتي الخاصة كان يمكن أن أكون شيخاً وأنا شاب. الظروف التي عشتها في طفولتي وفتوتي كانت تجعل مني شيخاً في إهاب شاب. لم أعرف نزق الشباب لأن كل شيء في العائلة المحافظة كان «عيباً»، حتى رفع الصوت بالصراخ من ألم الضرب مثلاً»[٣]. الشأن نفسه كان كذلك في القرويين، الجامعة العتيقة، بالنسبة إلى السواد الأعظم من المدرسين «تذكرت أستاذاً في القرويين كاد يصفع طالباً وهو يتشكك في أن مصير كل أبطال معركة الفتنة الكبرى إلى

(٢) عبد الكريم غلاب، **الأعمال الكاملة** (الرباط: منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠١)، ج ٢، ص ٣٣٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٢.

الجنة. كلهم كانوا على حق، لأن الضلال غير جائز في حقهم»[٤]. ثقل التقاليد البالية التي تمسك بالنفوس والعقول، وشيخوخة الشاب هي الصورة الرمزية التي سعى غلاب بواسطتها، في نصوص عديدة وليس في النص المشار إليه فحسب، للتعبير عن التمرد على الواقع القائم. واقع كانت فيه كل إرادة للخروج عما سطّرته التقاليد وتعهد الآباء بالحفاظ عليه وديعة مقدسة كما تلقوها بدورهم من أجدادهم تعتبر كفراً وإلحاداً وما في معناهما.

أخذت معاني الوطنية تتسرب إلى نفس الفتى عبد الكريم منذ التحاقه بالمدرسة الابتدائية الحرة التي أنشأها شباب مقاومة الظهير البربري ـ أولئك الذين سيصبحون، في جزء منهم، من دعاة وزعماء «كتلة العمل الوطني» التي كان والده في حال من التعاطف معهم شديد. أفسح في المجال، مرة أخرى، لعبد الكريم، وهو يستعيد ذكريات تلك الفترة الأولى من حياته: «أحسبني ولدت مسيَّساً، ولذلك لم أكلف نفسي عناء الجواب عن سؤال: متى التحقت بالقافلة؟ لا أخلط بين السياسة والوطنية، ففي المدرسة الابتدائية كنت أعرف معنى الوطنية في أبسط مفاهيمها. فيها تعلمت أن أعادي الاستعمار وأحقد على المستعمرين. ومنها تخرجت مناضلاً من أجل أن يكون لشعبنا وطن مستقل. وإذا كان السجن المبكر فتح أمامي طريق العمل السياسي فإن انضمامي إلى «كتلة العمل الوطني» ـ قبل السجن ـ علمني كيف أفكر سياسياً على نحو ما كان التفكير السياسي آنذاك يقود الكتلة إلى النشاط السياسي في المغرب وخارج المغرب»[٥]. وفي **سفر التكوين** يتحدث عن الجديد الذي مكنته خطواته الأولى في العمل السياسي من اكتسابه، فيقول عن نفسه في ضمير الغائب أو، مستعيراً عبارة أستاذه طه حسين في **أديب**، فيقول: «دعي صاحبنا ليكون مع زملائه جماعة من الطلبة تتدارس كتباً ومجلات وتناقش أفكاراً ومبادئ، لم يكن يدرك أن تلك الجماعة كانت بداية خلية وطنية سرية، أو شبه سرية (...) تعلّم في الخلية أكثر مما تعلم في المدرسة»[٦].

كان عبد الكريم غلاب كثير الحديث عن هذه الفترة من عمره كثير الرجوع إليها. فهو، أولاً، (ولا اعتبار هنا للتسلسل الزمني، فذاك شأن آخر) يفرد لها رواية **سفر التكوين** ـ غير أن تلك الرواية لا تغدو أن تكون سيرة ذاتية ترصد أحداث الفترة تلك من العمر وتحرص على تدوينها في دقة، ولست بحاجة إلى التنبيه إلى الدلالة الرمزية التي يحملها عنوان الكتاب **سفر التكوين**. ثم إنه، ثانياً، يمتح منها مادة لا ينضب معينها بالنسبة للعديد من رواياته وقصصه القصيرة (بل أكاد أقول أغلبها: **دفنا الماضي**، **المعلم علي**، **سعادة الباشا**، **شهرزاد في ليلتها الثانية بعد الألف**...). وهو، **ثالثاً**، يقف عند تلك المرحلة من العمر، ومن تاريخ تطور العمل الوطني في المغرب، في كتاب جمع فيه ترجمة عدد من زعماء المغرب وقادة الحركة الوطنية وهو **المجاهدون...الخالدون**. وقد تبين القارئ، فيما وقفنا عنده من اقتباسات أعلاه، منزلة المرحلة التي انتقشت فيها حروف **سفر التكوين** من نفس غلاب في حديثه الوجداني عن **الشيخوخة الظالمة**.

---

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٤٢.

(٥) عبد الكريم غلاب، **الشيخوخة الظالمة** (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٩٩)، ص ٣٨٩.

(٦) غلاب، **الأعمال الكاملة**، ص ٢٥١.

ثالثاً: درس القاهرة أو رجوع «الشيخ» إلى صباه

في خريف سنة ١٩٣٧، مع اشتداد حركة القمع التي استهدفت قادة الحركة الوطنية، بالنفي والسجن، أمكن للشاب عبد الكريم غلاب أن ينقل، من السر إلى العلن، طموحاً عميقاً ظل ملازماً له: الذهاب إلى القاهرة والفرار بنفسه من جحيم الشيخوخة التي ظلت تسكن الروح منذ النشأة الأولى حتى مشارف العشرين من العمر. القاهرة التي عرفها في الخيال، من خلال الرموز التي عشق فأقبل يلتقط متلهفاً كل ما يصله من أقلام رموزها من خلال ما أمكنت قراءته في **الرسالة** و**المقتطف**، و**الهلال**، و**الأهرام** ومن كتب قليلة (طه حسين، العقاد، الزيات، الخولي، المازني وآخرون). ولا شك أنه كان هناك خوف على عبد الكريم، من قبل الأب الرحيم، أن تمتد إليه الأيدي بالاعتقال أو التشريد في منفى سحيق[٧]. ثم لا شك أنه قد تناهى إلى أسماع سلطات الحماية انتساب غلاب الشاب إلى هذا «الحزب الوطني» الجديد، وحضور بعض اجتماعاته خارج مدينة فاس. إذاً، السجن أو النفي البعيد يظل خطراً محتملاً ومهيمناً. وبالتالي، لم يكن أمام الأسرة المحافظة سوى الرضوخ لرغبة الفتى في ارتياد المجهول، وبالتالي السفر إلى القاهرة. يكتب غلاب: «رحلت إلى مصر، والرحلة يومئذ إلى مصر دونها رحلة اليوم إلى القمر ولم يكن ما بين المغرب والمشرق مما يطمع الراحل في عودة قريبة (...) وخروجنا من المغرب ـ على عهد الحماية ـ للدراسة في مصر بالذات كان خروجاً عن القانون تقريباً (...) ومن عاد إلى الوطن في عطلة فلا أمل له أن يعود إلى مدرسة أو كلية»[٨].

سيستمر مقام غلاب في القاهرة إحدى عشرة سنة (١٩٣٧ ـ ١٩٤٨)، اتصل فيها المقام فلم تكن لتتخلله عودة قصيرة إلى المغرب في عطلة صيفية. «كان زملائي من الطلبة، من مصريين وسوريين ولبنانيين وفلسطينيين يمكن أن يعودوا إلى قراهم في عطلة نصف السنة أو في العطلة الصيفية ليسترجعوا حياتهم في القرية أو المدينة وليصلوا الرحم بعائلاتهم وأصدقائهم. أما نحن المغاربة فقد كنا كعهد الرحّالين المغاربة للحج أو لطلب العلم: يودعون قبل أن يرحلوا، فالراحل مفقود وإن عاد فهو مولود»[٩]. غير أن غلاب يقر بأن مصر استضافته كأحسن ما تكون الضيافة؛ فقد كانت مصر في تلك الفترة «عاصمة العرب» (والنعت لغلاب). من ذلك أن السلطات الحكومية لم تكن تتشدد في أمور الإقامة والوثائق الإدارية، وإنما هي إقامة لغير المصريين من العرب كما يقيم المصريون أنفسهم يخبرون، جميعاً، ما كان ذوو الدخل المحدود يخبرونه. ولا شك في أن الطلبة المغاربة قد عرفوا أحوالاً قاسية من الشدة في الفترات التي كانت المراسلات والتحويلات البنكية تتعثر، بل تتوقف كلية، وكذلك كان الشأن سنوات الحرب العالمية الثانية. غير أن لسان غلاب يظل يلهج دوماً بحب مصر وأهلها، وقد أفرد لذكرياته في مصر كتاباً: سيرة ذاتية للمرحلة جعل له عنواناً يوحي بشعرية جميلة: **القاهرة تبوح بأسرارها...**[١٠]. نقرأ في الجملة الأولى من الكتاب «لا أدري متى تعرفتُ إلى القاهرة ومتى تعرفتْ إليَّ. ولكن الذي أدريه أن أول كتاب وضع بين يدي كان

---

(٧) وقد سجل في قائمة سلطات الحماية في فاس في جملة من دخلوا السجن في جماعات «الكتلة».

(٨) غلاب، **الشيخوخة الظالمة**، ص ٣٤٠.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) عبد الكريم غلاب، **القاهرة تبوح بأسرارها**، كتاب الهلال؛ العدد ٥٩١ (القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠).

مكتوباً على غلافه: طُبع في القاهرة، وأن أول صحيفة وُضعت بين يديَّ كان مكتوباً على صفحتها الأولى: طُبعت في القاهرة». ونقرأ له، في بوح وجداني عميق، في جملة من الفقرات الأخيرة من الكتاب: «أحببت مصر وعشت فيها أزهر أيام شبابي». بل إنه يبوح بالقول إن حب مصر تمكن من قلبه تَمَكُّنَ حبه للمغرب «أعتبر نفسي سعيداً وقد عشت حياتي بين وطنين قدما لي أكثر مما قدمت لهما، اقتسما حبي وهيامي بالأرض والسماء والإنسان»(١١). وأجد أن الصفحات التي يتحدث فيها غلاب عن القاهرة زمن الحرب والغارات الجوية والمخابئ، حيث يمتزج وجود المصريين بمن عداهم تمازجاً تاماً، من أجمل صفحات الكتاب وأكثرها دلالة على الوعي العروبي القوي من جانب وعلى الشعور بالوحدة بين أبناء الشعوب المقهورة من جانب آخر.

يقول غلاب عن نفسه إنه تعلم من مصر الكثير: «تعلمت الكثير من المجتمع المصري، وفي مقدمة ما تعلمت منه أن أصبح، لأول مرة في حياتي، شاباً»(١٢). ويقول عن فترة وجوده في مصر، في السنتين اللتين سبقتا الحرب العالمية الأولى خاصة «أدين للديمقراطية في مصر بالكثير من ثقافتي السياسية فقد كنت مأخوذاً بديمقراطية مصر أتابع تطوراتها السياسية وكأني ابن مصر أعد نفسي لأشارك يوماً في الممارسة السياسية وأتابع نشاط قادة الهيئات السياسية. زرت بعضهم (النحاس باشا، وأحمد حسين مثلاً)، وتابعت التجمعات السياسية التي كانت الأحزاب تنظمها». لا شك أن هذا النوع من الممارسة كان، بالنسبة إلى غلاب وصَحبه القادمين من جحيم القمع الاستعماري في المغرب، تمريناً سياسياً ثميناً. لا يخلو الحديث الذي يستعيد فيه الذكريات، وهذا شيء طبيعي، من نظرة نقدية في ضوء ما سيكتسبه لاحقاً من تجارب «مع أن الدستور كان يحدد أجلاً للبرلمان، ومفروض في الدستور أن عمر الحكومة يوازي عمر البرلمان، لكن الحكومة كانت معرَّضة للتغيير من الملك وبتغييرها يتغير البرلمان في الغالب، إلا إذا كوَّن الحكومة أحد أحزاب الأقلية الحقيقية (وهي أغلبية في البرلمان) لصالح حزب آخر حليف في البرلمان». وهذا ما حمل غلاب على القول إن مصر «كانت تعيش ديمقراطية شكلية»(١٣). بيد أن الأكيد هو أن «فترة القاهرة» كانت بالنسبة إليه، الفتى الذي عرف نشأته الأولى في كنف الحركة الوطنية المغربية في عنفوان تشكلها، مدرسة في التكوين السياسي وفسحة للتكوين العلمي الأكاديمي بقدر ما كانت ـ مع ذلك كله ـ مجالاً للإسهام في عمل التحرير الوطني في المغرب، من خارج المغرب، بشهادة الوقائع والأحداث التالية التي نسوق الحديث عنها بإيجاز وتركيز شديدين. بل نحن نكتفي بذكر الأحداث الكبرى البارزة التي كان غلاب ورفاقه لا شهوداً عليها فحسب، بل وفاعلين فيها بالضرورة. أحداث أربعة، لكل منها أسباب ميلاد مختلفة، غير أنها تلتقي جميعها عند هدف واحد: خدمة قضية التحرير الوطني في المغرب.

ـ **الحدث الأول** هو الإسهام الفعلي لغلاب وصحبه، مع زملائهم من الطلبة العرب في الجامعة المصرية، في تأسيس جمعية أو تنظيم «جماعة الطلبة العرب» (برعاية أمناء للتنظيم، هم نوابه من أساتذة الجامعة وأعلام الكتاب في مصر). كان ذلك في زمن قال عنه غلاب إن الجامعة المصرية ـ

---

(١١) المصدر نفسه، الصفحة الأخيرة.

(١٢) غلاب، **الشيخوخة الظالمة.**

(١٣) غلاب، **القاهرة تبوح بأسرارها.**

مع انتشار الوعي السياسي انتشاراً يكاد يكون شاملاً ـ كانت تخلو من تنظيم طلابي يضم طلبة الجامعة. في هذا التنظيم عمل غلاب ورفاقه المغاربة على تحسيس الطلبة العرب بواقع الاستعمار الفرنسي في المغرب (أو، بالأحرى: مراكش ـ وتلك كانت دلالة المغرب بلداً وشعباً في الوعي العربي في بلدان المشرق العربي) في الوقت الذي كانوا يجهلون فيه عن المغرب وبلدان الشمال الإفريقي الأخرى كل شيء تقريباً. هذا هو الوجه **الأول** أو الدرس الأول المستفاد (عند غلاب وصحبه، أبناء الحركة الوطنية المغربية). أما الوجه **الثاني** أو الدرس الثاني المستفاد من تأسيس «جماعة الطلاب العرب» فهو الوعي بالاقتران المنطقي في الأذهان بين العمل من أجل التحرر الوطني في المغرب وبين الفعل العربي المشترك أو إنضاج الوعي العروبي المشترك. لنلاحظ إذاً كيف أن تأسيس التنظيم الطلابي العربي كان سابقاً على إنشاء جامعة الدول العربية.

ـ **الحدث الثاني**، المهم والفاعل في مسار غلاب وصحبه في «فترة القاهرة»، هو تأسيس «رابطة الدفاع عن استقلال مراكش». يسترجع غلاب ذكريات القاهرة أو، بالأحرى، بوح القاهرة بأسرارها فيكتب: «كان إحياء الذكريات الوطنية، بشكل أو بآخر، بداية مشجعة وجدنا من سبقنا يقوم بها (...) ولكنا كنا نطمح إلى عمل أكثر تنظيماً واستمرارية وهكذا اجتمعنا، نحن الطلبة، لنؤسس جماعة تهتم بالدفاع عن القضية الوطنية واهتدينا إلى «رابطة الدفاع عن مراكش». كان بعضنا قد تخرّج في الكلية وبعضنا أشرف على ذلك، ففي الوقت متسع للعمل ولكن دون وسائل. ثم إن ظروف العمل لا تساعد على ذلك. مصر نفسها كانت في حاجة إلى «رابطة للدفاع» عن حقوقها بعد أن تنمر الاستعمار الإنجليزي الجريح ضد كل عمل تحرري»[(١٤)]. وبإمكانات شحيحة في البداية (قبل أن يتمكن الملك محمد الخامس ـ بكيفية سرية ـ من إمداد الرابطة بدعم مالي حمله مغاربة في طريقهم إلى الحج) أمكن للرابطة أن تشيع الوعي بالقضية المغربية: «وكتبنا مذكرة باسم «رابطة الدفاع عن مراكش» نطالب فيها باستقلال المغرب قدمناها لسفارات إنجلترا وأمريكا والاتحاد السوفييتي ومكتب فرنسا والحكومة المصرية. كان ذلك في بداية [كانون الثاني] يناير ١٩٤٤ ونشر خبر هذه المذكرة في بعض الصحف المصرية يوم ١٣ كانون الثاني/يناير، في التاريخ نفسه الذي كان حزب الاستقلال يحضّر سرياً وثيقة المطالبة باستقلال المغرب وقدمها يوم ١١ [كانون الثاني]يناير ١٩٤٤. لا أحتاج إلى القول إن أية صلة لم تكن لنا بحزب الاستقلال ... ولكننا في حاجة إلى القول إن التفكير الذي كان يقودنا إلى تلمس الطريق لإنقاذ المغرب هو نفس التفكير الذي كان يقود حزب الاستقلال»[(١٥)].

ـ **الحدث الثالث**، المهم والفاعل في تطور الوعي السياسي عند غلاب وصحبه، وكذا التاريخ البارز في عمل الحركة الوطنية المغربية، خارج المغرب، هو إنشاء تنظيم مغاربي كبير كان الأول من نوعه، والأهم والأكثر جدية في تاريخ العمل المغاربي المشترك (نسبة إلى مجموع دول المغرب العربي)، بل لعلّي أنعتها بالتجربة الفريدة التي تستوجب التقدير والاحترام معاً في تاريخ ذلك العمل المشترك: تأسيس مكتب المغرب العربي في القاهرة.

---

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) المصدر نفسه.

أُفسح في المجال، قليلاً، للزعيم المغربي علال الفاسي لنقتبس من حديثه في كتابه **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي** جملاً تلقي بعض الأضواء على حدث التأسيس ودلالته على العمل المغاربي المشترك وعلى النضال من أجل التحرير الوطني في المغرب: «استمرت رابطة الدفاع عن مراكش في بذل مجهوداتها لخدمة البلاد، وحصل ممثلو حزب الاستقلال بها على وكالة حزب الإصلاح (الحزب المغربي في شمال المغرب، وهي المنطقة التي كانت ـ كما ألمحنا إلى ذلك ـ خاضعة للحماية الإسبانية، وكان رجالها يتمتعون ـ على كل ـ بحرية في القول وفي التنقل متى قورن الأمر بما كان عليه الحال في منطقة الحماية الفرنسية. وفي العبارة المغربية تنعت منطقة شمال المغرب بالمنطقة الخليفية، نسبة إلى خليفة السلطان ـ الملك ـ في شمال المغرب) بعد استئناف العمل المنسق بين الحزبين وتقوى نشاطهم بمجهودات الوفد الخليفي (نسبة إلى المنطقة الخليفية التي ألمحنا إليها) لدى رجال الجامعة (جامعة الدول العربية) الذي سهل عليهم بصفته الرسمية سائر الاتصالات بالدوائر المأذونة كلها، وازدادوا شعوراً بضرورة العمل على تنسيق الجهود لا بين هيئات المغرب الأقصى فقط بل حتى مع سائر أحزاب الشمال الإفريقي. ولذلك اتفقوا مع ممثل حزب الشعب (الجزائري) في القاهرة، ومع ممثل حزب الدستور التونسي على أن يعقدوا مؤتمراً عاماً لدراسة شؤون المغرب العربي والبحث عن أنجع الوسائل لتنسيق الأعمال (...)».

«(...) افتتح المؤتمر (...) تحت الرئاسة الفخرية لمعالي عبد الرحمن عزام باشا وحضرها جمع كبير من رجال العرب وزعماء المشرق وخطب فيها عزام باشا (بصفته أميناً عاماً لجامعة الدول العربية) خطبة مهمة، وتلاه بعدها سكرتير المؤتمر الأستاذ عبد الكريم غلاب وغيره من الحاضرين (...)».

«(...) بمجرد ما انتهى المؤتمر قام ممثلو أحزاب الاستقلال والشعب والدستور بفتح دار لتوحيد مكاتبهم في القاهرة طبقاً لتوصية المؤتمر وأطلقوا عليها «مكتب المغرب العربي» وقد اشتمل نظام المكتب على ثلاثة أقسام: القسم المراكشي ويتعاون فيه حزب الاستقلال وحزب الإصلاح، والقسم التونسي ويشرف عليه حزب الدستور الجديد،وقسم الجزائر مخصص لحزب الشعب. وللمكتب مدير عام ينتخبه ممثلو الأحزاب المذكورة في جمعية عمومية لمدة سنة وله لجان فنية متعددة (...)».

«(...) وقد أصبح مكتب المغرب العربي في القاهرة مطمح أنظار الذين يهتمون بالشئون المغربية ويعملون لها، وحج الوافدين من شمال إفريقيا خصوصاً بعد أن اجتمع فيه زعماء هذه البلاد ونزل فيه لأول مرة بطل المغرب الأمير عبد الكريم (عبد الكريم الخطابي)»[١٦].

ـ نزول عبد الكريم الخطابي (أو بالأحرى إنزاله) في القاهرة، هو **الحدث الرابع** المهم في مسار غلاب وصحبه في القاهرة، من **جهة أولى** وفي تطور عمل الحركة الوطنية المغربية عامة، من **جهة ثانية**.

نتحدث عن إنزال لا عن نزول (من الباخرة)، ونكاد نقول عملية اختطاف، للسبب التالي: بعد نفي في جزيرة لارينيون (الجزيرة التابعة لفرنسا ـ ما وراء البحار) لمدة سبع وعشرين سنة كاملة

---

(١٦) علال الفاسي، **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، ط ٥ (الرباط: منشورات مؤسسة علال الفاسي، [د. ت.]) ص ٣٧٥ ـ ٣٨٠.

قررت السلطات الفرنسية نقل الزعيم المغربي الذي كبّد الاستعمارين الفرنسي والإسباني الخسائر الأسطورية في الشمال المغربي إلى منطقة أخرى. كان من اللازم للسفينة التي تقل الخطابي وعائلته أن تعبر قناة السويس، ولم يكن لها بد من الرسوّ فيه أربعاً وعشرين ساعة. وفي حكاية طريفة، تشبه فيلماً سينمائياً من أفلام الجاسوسية والمغامرات، تلقى مكتب المغرب العربي في القاهرة إشعاراً بذلك، فتحركت آلية الاتصال بالقصر الملكي في القاهرة مع التماس من الملك استقبال الزعيم المغربي والبطل الشهير لاجئاً سياسياً في مصر، وهذا من **جانب أول**. ثم المبادرة، في الوقت ذاته، إلى لقاء الزعيم الخطابي وإقناعه بالنزول من الباخرة، فراراً من رحلة النفي الجديدة، وهذا من جهة أخرى. وفي مساع سريعة، معقدة ودقيقة، نجح المغاربة ـ من أعضاء مكتب المغرب العربي ـ في إنجاح العملية الحرجة. ومن الطبيعي أن عبد الكريم غلاب كان عنصراً فاعلاً في الخطة: تدبيراً وتنفيذاً ـ والأكيد أن قارئ **القاهرة تبوح بأسرارها** يحظى بصفحات ممتعة في تصوير ذلك كله. ولعلّي أضيف، في الحديث عن الإمتاع في **القاهرة تبوح بأسرارها** أن غلاب في أحاديثه عن الخطابي ورفقته له في الإسكندرية ثم في القاهرة ليس بأقل إمتاعاً لقارئه في الصفحات التي يفردها لوصول زعيم ثائر آخر إلى القاهرة في رحلة «عجائبية» إلى مصر؛ والأمر يتعلق، عند من كان في حاجة إلى التصريح، بالزعيم التونسي الحبيب بورقيبة. جميلة فعلاً هي تلك الصفحات من كتاب غلاب التي يفردها عن الأيام الجميلة التي قضاها الزعيم الكبير في ضيافة الطلاب المغاربة في غرفة «فوق السطوح» ـ مع كل المتعلقات التي تتصل بذلك. ولا شك في أن تلك الأيام كانت تعد، في وجدان المرحومين غلاب وبورقيبة، من أجمل وأبهى أيام العمل التحريري المشترك ومن أحلى أيام القاهرة وأجملها.

أما بالنسبة إلى الحركة الوطنية المغربية فقد نكون في غنى عن القول إن وجود الخطابي العظيم في أرض مصر، وحضوره في مكتب المغرب العربي تحديداً، قد أكسب الحركة الوطنية مدداً روحياً قوياً في العمل السياسي، خارج المغرب، من أجل تحرير الوطن، في وقت ضمت فيه أرض الكنانة بورقيبة وعلال الفاسي وأضرابهما من رموز الوطنية والمقاومة في بلدان المغرب العربي.

رابعاً: سبعة أبواب

صادف عودة عبد الكريم غلاب إلى أرض الوطن تسارع في وتيرة العمل الوطني في المغرب، بعد تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال في كانون الثاني/يناير ١٩٤٤، وما أعقبها من قمع شديد، وكذا الرحلة التاريخية التي قام بها إلى طنجة (ضداً على إرادة الحماية الفرنسية) في نيسان/أبريل ١٩٤٧. ففي تلك الرحلة ألقى الملك محمد الخامس خطاباً عبَّر فيه عن تطلع المغرب إلى الاستقلال وعن تشوُّف البلد إلى العمل العربي المشترك. وغني عن البيان أن القولين معاً يُغضبان الاستعمارين الفرنسي والإسباني أشد ما يكون الإغضاب وأنهما يحملان على المزيد من القمع والإساءة. غير أن العمل الوطني كان في تنام مستمر لعل أحد علاماته القوية الإقبال على إنشاء المزيد من المعاهد والمدارس التابعة لتوجيهات الحركة الوطنية والعاملة بدعم مباشر منها. وقد نذكر، في معرض النضال الفكري، إصدار مجلة ثقافية سياسية معاً كان لهان مع عمرها القصير إشعاع كبير وهي مجلة **رسالة المغرب**. تولى عبد الكريم غلاب رئاسة تحرير تلك المجلة، وفي أعداد متتالية منها

سينشر علال الفاسي كتابه **النقد الذاتي**. وفي دراسة قديمة لي أنعت الكتاب بالبيان الأيديولوجي للحركة الوطنية، ولا أزال حاملاً لنفس الاعتقاد لأسباب نظرية وتاريخية تبرر ذلك الحكم. وتولّي غلاب رئاسة تحرير المجلة المذكورة سيكون من جهة أخرى، تدشيناً لعمل صحافي سينخرط فيه الرجل مدى يفوق نصف قرن من الزمان. وكما أشرت، في مستهل هذا المقال، سيرتبط بعمل ينعت، صدقاً، بمهنة المتاعب فيعتبرها العمل الأقرب إلى نفسه وإحدى القنوات التي ينقل من خلاله رأيه الفكري وتوجهه السياسي معاً.

أعقب نفي محمد الخامس قرار من الإدارة الاستعمارية ألغى بموجبه العمل الحزبي الوطني. ولما أودعت الحماية السجن قيادة حزب الاستقلال، فدخل هذا الأخير في مرحلة العمل السري من جديد، تم تكليف غلاب الالتحاق بالقيادة السرية، وكذلك أصبح عضواً في اللجنة التنفيذية للحزب (المكتب السياسي في أدبيات حزب الاستقلال). وقد كان من الطبيعي أن يصيب الاعتقال عبد الكريم غلاب وأن يودع في السجن بدوره؛ وكذلك كان. وتجربة الاعتقال، والمرور التقليدي بمخافر الشرطة السرية مدة غير قصيرة قبل أن ينقل إلى السجن، هي مادة رواية **سبعة أبواب**. وليست هذه الرواية عملاً تخييلاً بحتاً بقدر ما هي بسط لسيرة ذاتية في مرحلة من العمر عاش فيها المؤلف تجربة السجن. لم يكن دخول السجن في ١٩٥٣ بالتجربة الأولى التي يعرفها الرجل. وتلك هي الجملة الأولى من الرواية ـ السيرة الذاتية: «لم تكن المرة الأولى التي عرفت فيها السجن، ولذلك لم أكن لأتهيَّب السجن كما يتهيَّب الأطفال باب المدرسة لأول مرة»[(١٧)]. بيد أن بين التجربتين بوناً شاسعاً: ففي المرة الأولى، وقد كان غلاب فتى دون العشرين في إثر تقديم «كتلة العمل الوطني» للمطالب التي تقدمت بها (١٩٣٤) لم يكن، من **جهة أولى**، قد خبر من الحياة السياسية والعملية ما خبر فاعتنى بتجارب من أنواع شتى. ومن **جهة ثانية**، فإن فرقاً جوهرياً يوجد بين المعتقل من القاعدة العريضة للحزب أو التنظيم وبين من كان في مكان القيادة العليا لحزب سياسي غدا محظوراً ولسلطة لم تعد تعمل ولا يحضر في تفكيرها اعتبار كلي أو جزئي لمقتضى «عقد الحماية»، وإنما هي سلطة استعمارية تقوم في وجهها مقاومة أخذت تأخذ بالسرعة القصوى في الانتقال من العمل السياسي إلى عمل المقاومة المسلحة. وأحسب أن السنوات الثماني التي كانت تفصل بين عودة غلاب من مصر (١٩٤٨) وبين استرجاع المغرب استقلاله (١٩٥٦) كانت فترة تقوّى فيها وعي الرجل بالانتماء إلى حزب سياسي كان بصدد العمل من أجل استرجاع المغرب استقلاله وكذا التفكير في إنضاج التنظيم الحزبي.

خامساً: عبد الكريم غلاب المثقف العضوي

لا يزال لفظ «المثقف»، في التداول العربي المعاصر، مشوباً بغموض شديد يحمل على الخلط بين دلالات كل من العالم، والخبير، والمتعلم الحائز درجة عليا (بل ومتوسطة في الأغلب الأعم) من التكوين النظري. وليس من شأننا، في هذا الحديث، أن نخوض في تدقيقات قاموسية ولا أن نثير إشكالات نظرية (إذ إن عبارة «المثقف العضوي» تحيل على الأدبيات الماركسية إجمالاً وعلى

---

(١٧) غلاب، **الأعمال الكاملة**، ج ٢، ص ١٠.

أنطونيو غرامشي خاصة). بيد أننا بحاجة إلى أن نسلِّم بمسألة أساسية تتصل بمعنى المثقف. ليس كل عالم أو حائز شهادة علمية عليا مثقفاً بالضرورة؛ وليس من الصحيح صحة مطلقة أن نعت «المثقف» لا ينسحب بالضرورة على الطبيب والمهندس وكذا جمهرة الخبراء العاملين في مجال التكنولوجيا (وهذا اعتقاد واسع الانتشار بدوره). لعل **السمة الأولى**، بل الشرط الضروري والكافي (كما يقول المناطقة) الذي يجعل من إنسان ما «مثقفاً» هو أن يكون، مع حيازته مستوى معرفياً عالياً أو جيداً على الأقل، منشغلاً بالشأن العام وقضاياه من **جهة أولى**، وأن يكون منخرطاً في الفعل الجماعي (على النحو الذي يجيزه إعداده العلمي) وأن يستهدف، بالمشاركة، العمل على **تغلغل** ما يراه من آراء وتصورات في أرض الواقع على نحو يخدم القضايا التي تتصل بالشأن العام، وهذا من **جهة ثانية**. وفي هذا المعنى يصح القول إن المثقف الذي ينتمي لحزب سياسي يعمل انطلاقاً من نسق منسجم من المبادئ والأفكار ويجعل من السعي لامتلاك السلطة التنفيذية يصدق في حقه المعنى الذي يقصده غرامشي بالحديث عن «المثقف العضوي». هل يفيد هذا القول إقصاء الفئة (أو الفئات) لا تكون منتمية إلى تنظيم سياسي معلوم؟ هذه قضية أخرى، كثر القول فيها وليس يعنينا أن ننغمس في متاهاتها في حديثنا هذا. بيد أننا نقرّ أن المثقف الذي ينخرط في العمل السياسي ويسعى إلى إشاعة الوعي بما يعتقد أنه الصواب، أو الأحق، أو الأجدى في خدمة قضايا الشأن العام هو بالضرورة يندرج في عداد من يحق في حالهم إرفاق نعت العضوي بصفة المثقف.

متى سلّمنا بصحة الفكرة السابقة فإننا نسلِّم، بسهولة ويسْرٍ، بأن صفة «المثقف العضوي» تنطبق على عبد الكريم غلاب أفضل ما يكون الانطباق أو ـ كما قلنا في صدر هذا الحديث ـ إن هذا الحكم في حق غلاب لليس من لغو الحديث ولا من باب القول المرسل على عواهنه في شيء. وأجدني، توخياً لمزيد حظر وتدقيق معاً في حاجة إلى أن أضيف إلى تقريري هذا قولاً آخر يدعم ما أقصده ويؤيده □

Copyright of Arab Future is the property of Centre for Arab Unity Studies and its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission. However, users may print, download, or email articles for individual use.